

تعريب رائعة القبائلي الجزائري علي الحمامي:

"إدريس. رواية شمال أفريقية"

بقلم الأستاذ محمد الضويوي (1)

محمد بن عبد الكريم الخطابي:

"وعسى أن يترجم هذا الكتاب المحرر باللغة الفرنسية إلى اللغة العربية حتى يدرك أبناء عمومتنا في المشرق العربي ما هو جار هناك (يقصد في بلاد المغرب العربي). كما أن هذا الكتاب لا يخفي بعض الأخطاء التي كانت سائدة في المغرب قبل الاحتلال والتي كانت من البواعث الأكددة على سقوطه في قبضة الاستعمار"
من مقدمة الخطابي ل "إدريس" ، القاهرة، 1948.

علي الحمامي(1902-1949) ، نسبة إلى عين الحمام (ميشلي سابقا) في قلب جبال جرجرة ، موطن القبائل الكبرى التابعة حاليا لولاية تيزي وزو (فج الوزال) الجزائرية ، علم فريد من أعلام الأدب السياسي في بلاد المغرب في النصف الأول من القرن العشرين. لقد ولدت هذه الشخصية الأدبية الفكرية السياسية سنة 1902 من أب قبائلي هاجر إلى تاهرت ، هذه العاصمة الاباضية الرستمية (2) القديمة وانتصرت لل"أمغار" الكبير محمد بن عبد الكريم الخطابي في ثورة الريف الشهيرة. ولقد طاف الحمامي في بلاد الأرض شرقا وغربا بل أصبح زمن ستالين موظفا في مصلحة لإدارة شؤون الأرض ثم انتقل ، بعد إقامة مريرة في ألمانيا المتجهة نحو الهتلرية ، إلى المملكة العربية السعودية التي سرعان ما نفر منها "نفور الصحة من المرض" لقيامها على الدعوة الحنبلية الوهابية فاستقر في العراق المضطرب طوال تاريخه ودرس فيه الفرنسية وكتب بين ديسمبر 1941 جويلية 1942 ، أي في هذه الفترة التي شهدت ثورة رشيد عالي الكيلاني ، رواية إدريس في اللغة الفرنسية التي هي في مظهرها الأول محاكمة حقيقية لاستعمار فرنسا خاصة واسبانيا بلاد المغرب تكاد تقترب من دعوة الجزائريين ، اليوم ، فرنسا إلى الاعتذار عما ارتكبه من جرائم في الجزائر مند حملة لويس دي بورمون عليها سنة 1830.

-
- (1) محمد الضويوي: أستاذ جامعي مختص في الحضارة العربية المعاصرة سبق أن نشرنا له في هذا الموقع رسالة ماجستير بعنوان "الفلستيني العروبي الإسلامي محمد علي الطاهر وساسة بلاد المغرب". وهو اليوم يدرس في المعهد العالي للغات التطبيقية والإعلامية التابع لجامعة جندوبية.
 - (2) كانت علاقة الحمامي بالاباضي الطرابلسي سليمان الباروني ، في بغداد ، حميمة. ومن الأدلة على ذلك أن صورة علي الحمامي التي أثبتتها صاحب الموقع هي في الأصل صورة مشتركة لعللي الحمامي وسليمان الباروني وقع تغيب الباروني منها بسبب اقتصار بحثه على الحمامي.

وعندما بلغه سنة 1947 نبأ لجوء آل " أمغار " إلى مصر التحق بالقاهرة ، هذه العاصمة التي شهدت بين 1947 و 1949 ، وضمن "مكتب المغرب العربي ، حربا حزبية وإيديولوجية عجيبة بين المغاربة من أنصار الحلول التفاوضية وأنصار الكفاح المسلح، ولازم الخطابى وأهدى إليه روايته " إدريس " التي قدم لها الأمير وكتب حولها محمود تيمور قراءة نشرتها مجلة " الرسالة " الشهيرة.

هذا في ما يتعلق بالتعريف بهذه الشخصية القبائلية الجزائرية التي عاشت حياة تثبت أنها كانت شخصية إشكالية لن يحصل إجماع حولها مولدا وتنشئة وتعلما وهجرة وتفكيراً سياسياً اجتماعياً. وذلك هو شأن مضمون روايته " إدريس " التي في إمكان الباحث ، بعد أن يقرأها بترو ، أن يوزع فصولها التسعة على ثلاثة محاور(1):

المحور الأول الذي نعنونه بـ " إدريس في موطنه المغربي " ويتضمن الفصلين الأول الموسوم بـ " تولد " والثاني الذي هو " أصدااء الجبل ".

ونحن نجد ثني هدين الفصلين فهما للجبل أو " للوطن " ينم عن تكوين ابتدائي يعتمد الملاحظة وتحليلاً لصيقاً بالواقع. ولقد دفعنا إلى مثل هذا القول مانعثر عليه ضمن هدين الفصلين من تفكير مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالعائلة والجبل. وهذا أمر طبيعي لأن تفكيره في تلك الفترة ما زال في مرحلة " عضوية " كان فيها متشبثاً بالأصول ، هذه الأصول التي ستعرف تغيراً تدريجياً عندما غادر " إدريس " الجبل أو الوطن فعاش فترة انهيار الدولة العثمانية الاتحادية ، أي الفترة التي سنتشأ فيها ، نتيجة لذلك ، القوميات: العربية مثلما عبر عنها ساطع الحصري (1880-1969) والتركية مثلما سببرز عند مصطفى كمال " أبي الأتراك " (أتاتورك) والإيرانية بزعامة رضا شاه بهلوي (1878-1944).

إنه لا مفر من الإقرار بأن رواية " إدريس " هي نتاج هذه المرحلة التاريخية الحاسمة بالنسبة إلى المجالين العربي والإسلامي مشرقاً ومغرباً أي هاته الفترة التي فهم فيها " إدريس " أن " روح الشرق قد تغيرت وأنه على كل بلد ، من الآن فصاعداً ، واستناداً إلى القوانين الخالدة التي أملتتها الأرض والدم والى دروس تاريخه ، أن يحرص ، بنفسه ، على خلاصه الذاتي ذلك أن الفكرة القومية كانت تخترق الفكرة الدينية " أي ، بعبارة أخرى، فهم أن يولي قبلته بلاد المغرب وهو الذي عاش في مواطن كل الأفكار التي عبرت عن روح النصف الأول من القرن العشرين بدءاً من فرنسا مروراً بالاتحاد السوفييتي ووصولاً إلى الجزيرة العربية بعد قيام الدولة السعودية الوهابية الثالثة (1932).

1) استفدنا هنا من دروس الأستاذ م.ن. النفزاوي التي تعرض فيها للحمامي وخاصة من رسالة ماجستير الأستاذة جلييلة المؤدب بعنوان: ثلاثة رموز فكرية سياسية مغربية: الحبيب ثامر (ت.1949) وعلي الحمامي (ت.1949) وامحمد أحمد بن عبود (1949) وكانت قد ناقشتها أمام لجنة مكونة من الأساتذة : الهادي التيمومي (تاريخ حديث ومعاصر: رئيساً) ويوسف العثماني (لغة: عضواً) و م.ن. النفزاوي (حضارة حديثة ومعاصرة: مشرفاً) في ك.ع.ا. والاجتماعية. تونس (غ.م)

إن هذه الهجرة التي أتاحت لعلّي الحمامي التنقل في مواطن نشأة مختلف هذه الأفكار هي التي أوحى إليه أن لا ينتمي إلا إلى القومية المغربية بعد أن تلقى من المعارف ما سمح له بأن يتجاوز الفهم الضيق المرتبط بتحليل لصيق بالجبل وبالعائلة مثلما أشرنا إلى ذلك في المحور الأول، إلى مستوى نظرة جديدة شاملة إلى الأشياء تعبر عن فلسفة للتاريخ عامة ولتاريخ بلاد الغرب خاصة. وهذا هو ما نجده في الفصل الثالث من الرواية "حوار المصلى" الذي هو المحور الثاني من توزيعنا فصول الرواية. وانطلاقاً مما ورد فيه اخترنا أن نسميه "الرحلة أو الهجرة وأثرها في إدريس".

ولعل ما يتبقى من فصول الرواية، ونعني الفصول الستة التي رأيناها مدار المحور الثالث تؤكد ما ذهبنا إليه في ما تقدم أي، بمزيد من التفصيل، أن "إدريس"، بعد العودة من الهجرة، سيرى في الفكرة المغربية وسيلة بلاد المغرب الوحيدة للخلاص. أفلم يكتب الحمامي هذه الفقرة الرائعة:

"إن دراسة الماضي(المغربي)، بصفاتها مرآة تنعكس عليها جملة أمجاد الأمة وآلامها، إنما تنتزل في علاقتها بهذه الأمة منزلة الروح من الجسد. وابن المغرب، بقدر ما يستكشف ماضي أجداده، يزداد احتراماً له وهو يتأمل في هذه العصور التي اضطلع فيها أجداده بدور يجعل الإنسانية مدينة لهم ببعض الدين بما هو أكثر تميزاً في مكتسباتها بحيث يرتقي إلى مستوى أرفع ويدرك، بعد انحطاط طال أمده، أن وطنه منجم قيم يكفي بعض النشاط الذكي والشجاعة لتخصيب البدار فيه؟"

وخلاصة القول هي أولاً أن رواية "إدريس" تبدو، باعتبارها رواية نموذجاً في التفكير السياسي المغربي (ونحن نقول المغربي ولا نقول المغاربي لأن الحمامي لا يميز بين بلاد المغرب) منجماً فكرياً سياسياً حقيقياً لا يرقى إلى مستواه أغلب الروايات الجزائرية التي كتبت، في الفرنسية، في النصف الأول من القرن العشرين ولهدا، وثانياً، فإننا نبشر محبّي الأدب السياسي الجاد من الجزائريين خاصة بأن هذا الأثر الذي صدر في الجزائر في أكثر من طبعة قد عربّه محمد الناصر النفزاوي وسيصدر، في تونس عن المركز الوطني للترجمة، وهذا حسب ما صرح به مدير هذا المركز، في "معرض الكتاب" بداية من 24 أفريل...2009.

" الطريق الجديد " ، العدد 125 : 25 أفريل 2009

